حياة أعظم الرسل

# محمّد في مُعاهَدة الحُدَيبية

# محمد فى معاهدة الحديبية

مَضَى عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ سِتُّ سَنَوَاتٍ مُنْذُ هَاجَرَ مِن مَكَّةَ إِلَى الْمَدِينَةِ . قَضَاهَا فِي نَشرِ الدَّعوَةِ إِلَى الْإِسلامِ ، وَتحسِينِ أَحوالِ المُسلِمينَ اِجتِمَاعِيًّا وَاقتِصَادِيًّا .

أَحَبَّ الأَنصَارُ المُهَاجِرِينَ ، وَأَكرَمُوهُم كُلَّ الإِكرَامِ ، وَسَاعَدُوهُم كُلَّ الْمُسَاعَدَةِ ، وَلٰكِنَّ ذٰلِكَ كُلَّهُ لَم يَمنَعِ الْمُهَاجِرِينَ مِنَ الشَّوقِ إِلَى وَطَنِهِم ، والرَّغبَةِ

فِى زِيَارَتِهِ .

وَلاَ عَجَبَ ؛ فَحُبُّ الوَطَنِ مِنَ الإِيمانِ ، وَهُوَ شُعُورٌ طَبِيعِيٌّ . وَكَثِيرًا مَا كَانَتِ الدُّمُوعُ تُرَى فِى أَعيُنِ المُهَاجِرِينَ حِينَمَا يَتَكَلَّمُونَ عَن مَكَّةَ ، وَطَنِهِمُ الْمَحبُوبِ . وَقد فُرِضَ عَلَيهِم الحَجُّ فى الإِسلاَمِ ، وَلٰكِنْ كَيفَ يُؤَدُّون هٰذا الْوَاجِبَ الدِّينِىَّ وَالْكُفَّارُ فِى مَكَّةَ لاَ يَسمَحُونَ لَهُم بِزِيَارَتِهَا ؟ وَقَدِ اشتَاقُوا جَميعًا لِزِيَارَةِ الْكَعْبَةِ ، وَأَدَاءِ فَرِيضَةِ الْحَجِّ . وَذَاتَ لَيلَةٍ رَأَى الْمُصطَفَى ﷺ فِى الْحُلْمِ أَنَّهُ ذَهَبَ لِزِيَارَةِ الْكَعْبَةِ بِمَكَّةَ ، وَمَعَهُ

أَصحَابُهُ مِنَ المُسلِمينَ . وَالرَّسُولُ صَادِقٌ فِى حُلْمِهِ الَّذِى يَرَاهُ . وَقد ذَكَرَ مُحمدٌ لِأَصحَابِهِ مَا رَآهُ فى الْحُلْمِ ، فَسُرُّوا كَثِيرًا بِهٰذَا الْخَبَرِ ، وَأَخَذَ كُلُّ مُسلِمٍ يَستَعِدُّ لِلذَّهَابِ إِلَى مَكَّةَ ؛ لِأَدَاءِ فَرِيضَةِ الْحَجِّ . وَفِى ذٰلِكَ قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَقَد صَدَقَ اللّٰهُ رَسُولَهُ الرُّؤيَا[1] بِالْحَقِّ ، لَتَدْخُلُنَّ الْمَسجِدَ الحَرَامَ إِن شَاءَ اللّٰهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ[2] رُءُوسَكُمْ ، وَمُقَصِّرِينَ لاَ تَخَافُونَ ، فَعَلِمَ

---

(١) هِىَ رُؤيَاهُ فِى المَنَامِ أَنَّهُ دَخَلَ المَسجِدَ الحَرَامَ .

(٢) لِأَنَّ الحَاجَّ أَو مَن أَرَادَ العُمرَةَ — إِذَا انتَهَى مِن عِبَادَتِهِ حَلَقَ رأسَهُ ، وَقَصَّ شَعرَهُ ، وَقَصَّرَهُ .

مَا لَمْ تَعْلَمُوا ، فَجَعَلَ مِن دُونِ ذٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا[1] ﴾ . وَفِي شَهرِ ذِى القَعدَةِ أَمَرَ مُحَمَّدٌ الْمُسلِمِينَ بِالخُرُوجِ لِيَحُجُّوا ، لاَ لِيُحَارِبُوا ، وَأَلاَّ يَحمِلُوا مَعَهُم إلاَّ سُيُوفَهُم ، وَأَن يَجعَلُوهَا فِي غُمُدِهَا[2] . وَقَد أَرَادَ الرَّسُولُ بِهٰذَا أَدَاءَ فَرِيضَةِ الْحَجِّ فِي سَلاَمٍ ، وَلَم يُرِدْ حَرْبًا أَو قِتَالاً .

رَكِبَ مُحمدٌ نَاقَتَهُ ، وَخَرَجَ بِمَن مَعَهُ مِن المُهاجِرِينَ وَالأَنصَارِ ، وَعَدَدُهُم أَلفٌ وَأَربَعُمائَةٍ قَاصِدِينَ مَكَّةَ .

---

(١) آية ٢٧ من سُورَةِ الفَتحِ . (٢) غَمَدَ السَّيفَ : جَعَلَهُ فِي قِرابِهِ .

سَمِعَت قُرَيشٌ بِمَكَّـةَ أَنَّ مُحمَّـدًا وَأَصحَابَهُ قَادِمُونَ إِلَى مَكَّةَ لِأَدَاءِ فَـرِيضَةِ الْحَجِّ . وَلَم يُصدِّقُوا هٰذَا الْخَبَرَ . وَاعتَقَدُوا أَنَّ هٰذِهِ حِيلَةٌ أَرَادَ مُحَمَّدٌ أَن يَحتَالَ بِهَـا لِدُخولِ مَكَّةَ ، وَالِاسْتِيلاَءِ عَلَيْهَا .

وَأَرسَلَتْ قُرَيْشٌ خَالِدَ بنَ الْوَلِيدِ قَبـلَ إِسلاَمِهِ وَمَعَهُ كَثِيرٌ مِـنَ الْفُرسَانِ لِمَنـعِ مُحمدٍ مِن دُخُولِ مَكَّةَ ، بِكُلِّ وَسِيلَةٍ مِنَ الْوَسَائِلِ .

أَخَذَ مُحمدٌ يُفَكِّرُ فِيمَا يَفعَلُ ، وَكَانَ حَرِيصًا عَلَى السِّلْمِ ، مُحِبًّا لَهُ ، وَلَم يَخرُجْ

لِلْحَربِ ، وَلٰكِنَّهُ خَرَجَ لِأَدَاءِ فَرِيضَةِ الْحَجِّ ، وَقَالَ : ( وَاللهِ لاَ أَزَالُ أُجَاهِدُ عَلَى الَّذِى بَعَثَنِى اللهُ بِهِ ، حَتَّى يُظْهِرَهُ اللهُ ) .

وَبَحَثَ عَن رَجُلٍ يَسلُكُ طَرِيقًا غَيـرَ طَرِيقِ قُرَيشٍ لِدُخُولِ مَكَّةَ مِن غَيرِ حَربٍ ، فَتَقَدَّمَ أَحَدُ الْمُسلِمينَ وَقَادَهُم فِى طَرِيـقٍ ضَيِّقٍ كُلُّهُ تَعَبٌ وَمَشَقَّةٌ ، حَتَّى وَصَلُوا إِلَى الْحُدَيْبِيَةِ[1] . فَبَرَكَت نَاقَةُ النَّبِيِّ عِندَهَـا . وَظَنَّ الْمُسلِمُونَ أَنَّهَا قَد تَعِبَت فَبَرَكَت .

فَقَالَ مُحمدٌ : « إِنَّهَا لَم تَتعَبْ ، وَلٰكِنَّهَا

---

(١) بِئرٌ قربَ مَكةَ حَرَسَها اللهُ .

وَقفَتْ بِأَمرِ اللهِ». وَأَمَرَ أَصحَابَهُ أَن يُعَسكِرُوا فِى الْحُدَيْبِيَةِ؛ حَتَّى يَتَّصِلَ بِالكُفَّارِ، وَيَصِلَ مَعَهُم إِلَى اتِّفَاقٍ يَحفَظُ السَّلاَمَ وَيَصُونُهُ. فَقَالَ لَهُ الْمُسلِمُونَ: يَا رَسُولَ اللهِ، لَيسَ بِالوَادِى مَاءٌ نَنزِلُ عَلَيهِ. فَأَخرَجَ سَهمًا مِن كِنَانَتِهِ[1]، فَأَعطَاهُ رَجُلاً نَزَلَ بِهِ إِلَى بِئرٍ مِنَ الْآبَارِ فِى تِلكَ الجِهَةِ، فَغَرَزَهُ فِى الرَّمْلِ مِن قَاعِ البِئْرِ، فَفَاضَ الْمَاءُ وَخَرَجَ بِكَثْرَةٍ، فَاطمَأَنَّ النَّاسُ وَنَزَلُوا بِالْحُدَيْبِيَةِ. ثُمَّ وَصَلَ جَيشُ قُرَيشٍ إِلَى الْحُدَيْبِيَةِ. وَوَقَفَ

---

(١) الكِنَانَةُ: الَّتِى تُجعَلُ فِيهَا السِّهَامُ.

الْجَيشَانِ وَجْهًا لِوَجهٍ . وَصَمَّمَ الْكُفَّارُ أَلاَّ يَسمَحُوا لِلْمُسلِمينَ بِدُخُولِ مَكَّةَ ، وَصَمَّمَ الْمُسلِمُون عَلَى دُخُولِ مَكَّةَ لِأَدَاءِ فَرِيضَةِ الْحَجِّ . وَاستَمَرَّ مُحمدٌ عَلَى خُطَّتِهِ وَهِى خُطَّةُ السِّلْمِ ، وَالْبُعدِ عَنِ الْقِتَالِ إِلاَّ إِذَا هَجَمَتْ عَلَيهِ قُرَيشٌ .

وَتَأَكَّدَتْ قُرَيشٌ أَنَّ مُحمدًا لَمْ يأْتِ مُحَارِبًا ، وَلٰكِنَّهُ أَتَى لِأَدَاءِ فَرِيضَةِ الْحَجِّ . وَقَالَ لَهُم عُروَةُ بنُ مَسعُودٍ مُمَثِّلُهُم : « يَا مَعشَرَ[1] قُرَيشٍ ، إِنِّى جِئتُ كِسرَى[2]

(١) جَمَاعَة .

(٢) مَلِكُ الفُرْسِ .

فِـى مُلْكِـهِ ، وَقَـيصَرَ[١] فِـى مُلْكِـهِ ، وَالنَّجَاشِيَّ[٢] فِـى مُلْكِـهِ . وَإِنِّـى وَاللهِ مَا رَأَيتُ مَلِكًا فِى قَوْمٍ قَطُّ مِثلَ مُحمـدٍ فِى أَصْحَابِهِ . لاَ يَتَوَضَّأُ إِلاَّ ابْتَـدَرُوا[٣] وُضُوءَهُ . وَلاَ يَسقُطُ مِن شَعـرِهِ شَىءٌ إِلاَّ أَخَذُوهُ . وَأَنَّهُم لَـن يُسلِمُوهُ[٤] لِشَىءٍ أَبَدًا . فَرَوْا[٥] رَأيكُم . وَأَرسَلَ الْمُصطَفَـى عُثمانَ بنَ عَفَّانَ إِلَى أَبِى سُفيانَ وَكِبَـارِ قُـرَيشٍ ، فَقَالُـوا لَـهُ :

---

(١) مَلِك الرُّوم .
(٢) مَلِك الْحَبَشَةِ .
(٣) تَسَارَعُوا إِلَى أَخذِهِ .
(٤) لَن يَخذُلُوهُ .
(٥) فَكّروا فِى أَمرِكُم .

— يَا عُثْمَانُ ، إِن أَرَدتَ أَن تَطُـوفَ بِالْبَيتِ(١) فَطُفْ .

فَقَالَ عُثمانُ : لَن أَطُوفَ حَتَّى يَطُـوفَ رَسُولُ اللهِ . لَقَد جِئنَا لِزِيَارَةِ الْكَعْبَةِ ، وَأَدَاءِ فَرِيضَةِ الْحَجِّ ، لاَ لِلْحَربِ .

وَحَدَثَتْ مُفَاوَضَاتٌ وَمُنَاقَشَاتٌ طَوِيلَةٌ بَينَ الطَّرَفَينِ ، وَأَخِيرًا وَصَلَ الطَّرَفَانِ إِلَى اتِّفَاقٍ ، سُمِّيَ مُعَاهَدَةَ الْحُدَيْبِيَةِ . وَلَولاَ ثِقَةُ الْمُسلِمِينَ بِالـرَّسُولِ مَـا رَضُوا بِهـٰـذَا الاِتِّفَاقِ .

---

(١) البيت الحَرَام ، الكعبَة .

## مُعَاهَدَةُ الْحُدَيْبِيَةِ :

« بِاسِمكَ اللَّهُمَّ[١] هٰذِهِ هِىَ مُعَاهَدَةُ السَّلَامِ ( بَيْنَ الطَّرَفَيْنِ ) . وقد تَعَهَّدَا عَلَى أَنْ يَسمَحَا لِجُيُوشِهِمَا بِالْهُدْنَةِ[٢] عَشْرَ سِنِينَ . وَفِى أَثنَاءِ تِلكَ الْمُدَّةِ سَتَكُونُ كُلُّ جَمَاعَةٍ فِي مَأْمَنٍ ، وَسَيَسُودُ السَّلَامُ بَينَهُمَا . وَإِنَّ مَن أَتَى مُحمدًا مِن قُرَيشٍ بِغَيرِ إِذنِ وَلِيِّهِ[٣] رَدَّهُ عَلَيهِم ، وَمَن جَاءَ قُرَيشًا مِن رِجَالِ مُحمدٍ لَم يَرُدُّوهُ عَلَيهِ . وَمَن أَحَبَّ

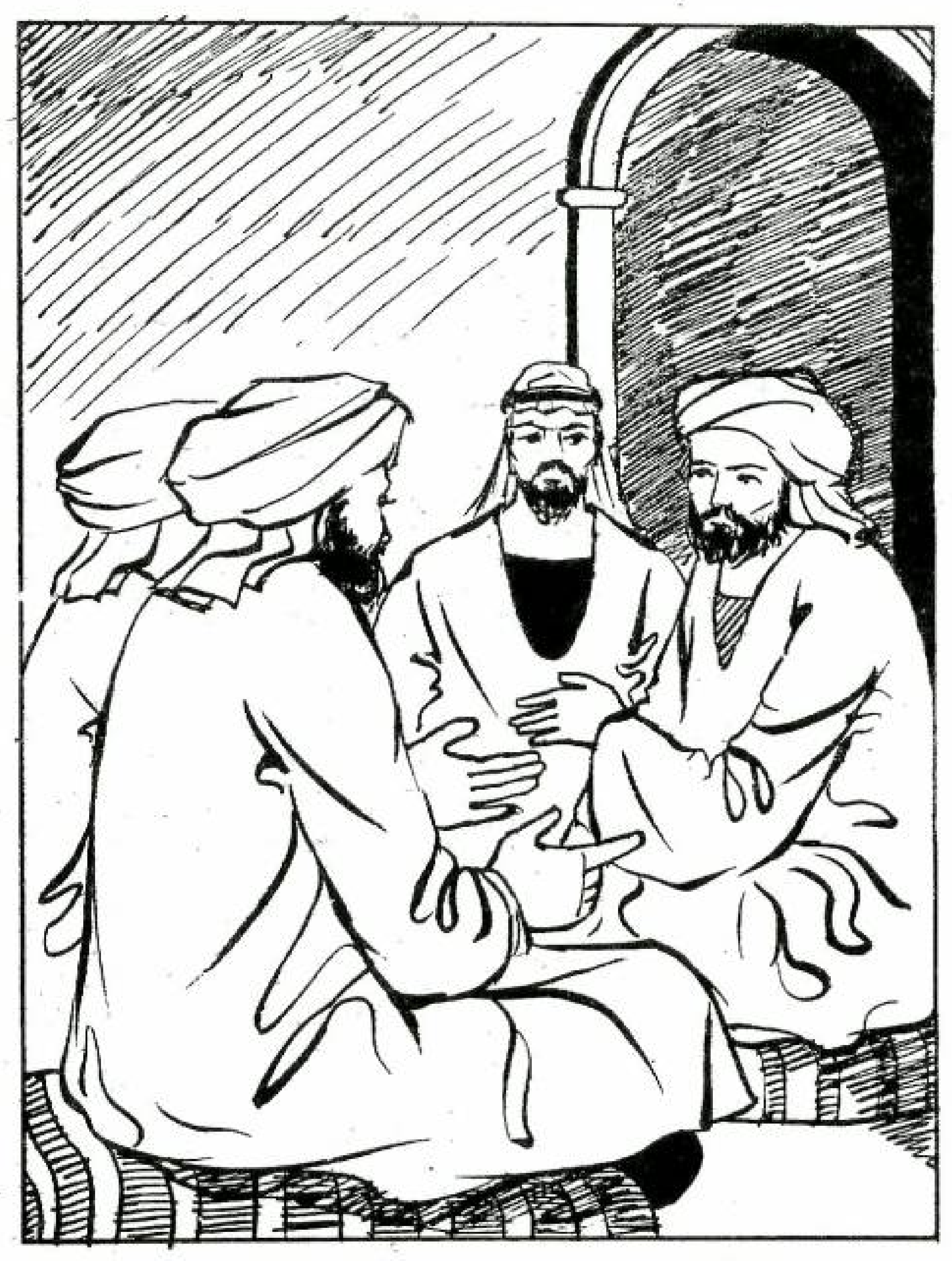
(١) يَا أَللهُ . (٢) الرَّاحَة والسَّلام . (٣) سَيِّدِهِ وَوَلِيّ أمرِهِ .

مِنَ الْعَرَبِ مُحَالَفَةَ مُحمدٍ فَلاَ جُنَاحَ(١) عَلَيهِ . وَمَن أَحَبَّ مُحَالَفَةَ قُرَيشٍ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيهِ . وَأَن يَرْجِعَ مُحمدٌ وَأَصحَابُهُ عَن مَكَّةَ عَامَهُم(٢) هٰذَا ، عَلَى أَن يَعُودُوا إِلَيهَا فِي الْعَامِ الَّذِى يَلِيهِ ، فَيَدخُلوهَا ، وَيُقِيمُوا(٣) بِهَا ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ ، وَمَعَهُم مِنَ السِّلاَحِ السُّيُوفُ فِي قُرُبِهَا(٤) ، وَلاَ سِلاَحَ غَيرُهَا » .

وَقَد مَكَثَ الْمُسلِمُونَ بِالْحُدَيبِيَةِ أَيَّامًا ، ثُمَّ رَجَعُوا إِلَى الْمَدِينَةِ ، وَهُم فِي شَوقٍ إِلَى انتِهَاءِ السَّنَةِ حَتَّى يَرجِعُوا إِلَى مَكَّة

---

(١) لا إثمَ ، لاَ لَومَ . (٢) سَنتهم . (٣) يمكثوا . (٤) جمع قِراب .



رُؤَسَاءُ قُرَيْشٍ يَتَنَاقَشُونَ فِى مُعَاهَدَةِ الْحُدَيْبِيَةِ

الْمُكَرَّمَةِ ، وَيُؤَدُّوا مَا فَرَضَ اللهُ عَلَيهِم مِنَ الْحَجِّ . وَفِى أَثنَاءِ الرُّجُوعِ إِلَى المَدِينَةِ نَزَلَ جِبرِيلُ عَلَى الرَّسُولِ بِسُورَةِ الْفَتحِ : ﴿ إِنَّا فَتَحنَا لَكَ فَتحًا مُبِينًا(١) . لِيَغفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ(٢) ، وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ ، وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا . وَيَنْصُرَكَ اللهُ نَصْرًا عَزِيزًا(٣) ﴾ . إِلَى آخِرِ السُّورَةِ .

---

(١) وَاضِحًا .

(٢) بَعدَ أَن تَستَغفِرَهُ عَمَّا كَانَ يَضِيقُ بِهِ صَدْرُكَ فِى بَعضِ الْأَحيانِ مِن شِدَّةِ إِيذاءِ قَومِكَ لَكَ وَلِلمُسلِمِينَ ، وَإِعراضِهِم عَنِ الإِيمَانِ .

(٣) نَصرًا لاَ مَثِيلَ لَهُ .

لَقَد كَانَ عَهدُ الْحُدَيْبِيَةِ فَتْحًا كَبِيرًا لِمُحَمَّدٍ وَالْإِسلامِ ؛ فَقَد اعتَرَفَتْ قُرَيشٌ بِالرَّسُولِ ، وَبِأَنَّهُ مُسَاوٍ لَهَا، وَاعتَرَفَتْ بِالدَّولَةِ الإِسلامِيَّةِ ، وَأَقَرَّتْ لِلْمُسلِمينَ بِحَقِّ زِيَارَةِ الْبَيتِ الْحَرَامِ وَهُوَ الْكَعْبَةُ ، وَإِقَامَةِ شَعَائِرِ الحَجِّ . وَاطمَأَنَّ المُسلِمُونَ مُدَّةَ الهُدنَةِ وَهِيَ السَّنَوَاتُ الْعَشْرُ .

وَأَثبَتَتِ الْأَيَّامُ حِكمَةَ مُحمدٍ ، وَبُعْدَ نَظَرِهِ ، وَحُسْنَ سِيَاسَتِهِ ، وَأَنَّ عَهدَ الْحُدَيْبِيَةِ كَانَ سَبَبًا فِى انتِشَارِ الْإِسلامِ ، وَهٰذَا هُوَ الفَتْحُ الْمُبِينُ .